١٤ - الطقوس الجنائزية:

تدل الحفريات على أن الطقوس الجنائزية كانت مختلفة بحسب العصور وبحسب الطبقات الاجتماعية. لقد ظل الدفن معمولا به مدة طويلة، ولكن عادة إحراق الموتى التي لم تكن مجهولة من القرطاجيين انتشرت في القرن الرابع تحت تأثير اليونان ثم فرضت نفسها في آخر الأمر. وكانت أقدم القبور عبارة عن غرف فسيحة الأرجاء سد مدخلها بصفيحة من الحجارة وبنيت أو نقرت في الصخر في عمق يبلغ أمتارا كثيرة. وكانت الموتى توضع في توابيت من حجر أو تمدد على الأرض مباشرة. ثم ظهرت بعد ذلك القبور الشبيهة "بالآبار"، أي أن غرفة أو عدة غرف منضدة كانت تفتح على آبار يتجاوز عمقها أحيانا عشرين مترا تسد بعد كل دفن. ولم تكن في الأول لتسع أكثر من جثة أو جثتين ثم انتشرت عادة الدفن الجماعي، وأصبحت معمولا بها على الإطلاق عندما فرضت عادة الإحراق نفسها. وفي ذات الوقت نقصت أبعاد غرف الموتى، وأصبحت تبنى في حفر أقل عمقا. وفي آخر العصور البونيقية أصبحت الأقبية في نهاية الأمر شبيهة بالأضرحة التي ليس لها تحت الأرض سوى جزء واحد.

وكان يوجد مع الجثث المدفونة أثاث متركب خاصة من آنية خزفية، وأدوات عادية لتيسير حياتها المادية، وتمائم ذات مفعول سحري. ولا شك أن القرطاجيين كانوا يؤمنون مثل بقية الفينيقيين بمقام مشترك للأموات ربما يشبه في كآبته "الشول" العبري غير أن علم الآثار لا يسمح بتدقيق ما يعتقده القوم في مصير الموتى.

ولا شك أن "أوزيرس" و" ديميتر" و"فوريا" لقنتهم الأمل في حياة أخرى أبدية سعيدة. ولا يوجد أي أثر لتقديس الموتى، ولا شك أنهم يخشونهم أكثر مما يحترمونهم. فقد كانت ضرورات الحياة اليومية لا تترك للقرطاجيين المجال للتأمل مليا في شأن الموتى.

ش. جوليان تاريخ شمال إفريقيا

١٠٢ ١٠٣

١٥ - المؤثرات الدينية الخارجية:

لقد خضعت الديانة البونيقية إلى موثرات خارجية، فقبور قرطاج احتوت على تمائم

مصرية الأصل إن لم تكن مستوردة وذلك حتى القرن الرابع على الأقل، فالآلهة "ايزيس" و"هاتور" و"أوزيريس" و"انوبيس" وغيرها وكانت لها تماثيل بلورية يبلغ طولها سنتيمترا واحدا أو سنتيمترين اثنين وتنضد في قلائد كالجواهر. ومن جهة أخرى فإن تفاوت عدد هذا النوع من التمائم أو ذاك في القبور يدل على أن قوتها الوقائية لم تكن في معزل عن تأثيرات العادات الشائعة.

وسعى القرطاجيون في التكفير عن البلايا الناتجة، في اعتقادهم، عن نهب معبد ديميتير وكوري برسفونا بسرقوسة سنة ٣٩٦ فأدخلوا في مدينتهم عبادة هاتين الآلهتين)سيريراس(وبقيت هذه العبادة قائمة حتى في العهد الروماني وعبدوا في صقلية "افروديت اريسين" التي كانت تغادر كل سنة جبل "اريكس" وتلتحق صحبة حمام المعبد بافريقية حيث تقيم تسعة أيام.

على كل فلا يجوز أن نقصر تأثير الشرق اليوناني في قرطاج ابتداء من القرن الرابع على الميدان الديني. ويوجد من الدلائل الأثرية ما يسمح لنا بان نؤكد أن المدينة البونيقية تغيرت تغيرا عميقا عند اتصالها بالمدينة الإغريقية.

ولكن المؤثرات الليبية كانت ابعد مدى من دون شك مما نلاحظه في الطقوس الجنائزية من طي الجثث وصبغها باللون الأحمر وخلط العظام بعد تجريدها من اللحم وقد اندمجت الآلهة الفينيقية مع الآلهة الإفريقية. ويذهب البعض إلى القول بان لفظ "تانيت" إفريقي. وقد عثر في معبد "صياغة")في بئر بورقبة قرب خليج الحمامات(على آلهة لها رأس لبؤة جالسة على أسد كما عثر على أبي هول ذي ضروع. وحاول الباحثون توضيح دور هذه الآلهة بتأثير العبادات الليبية في أواخر قرطاج.

١٦ - إشعاع قرطاج:

إلى أي حد طبعت المدنية القرطاجية بطابعها المدن والبلدان التي فتحتها. إنها لم تترك في اسبانيا وجزر غربي البحر الأبيض المتوسط أثرا يذكر، كما أفسحت المجال في صقلية للمدينة الإغريقية ابتداء من القرن الخامس. لكنها تأصلت في جزر مالطة وغوزو وبانتالاريا ولمبادوزا وخاصة سردانية. فما مدى تأثيرها في إفريقيا الشمالية ؟

يجب قبل كل شيء أن نؤكد أن قرطاج لم تحتل بلاد المغرب بأكمله، وأن نفوذها عندما بلغت أوجها لم يتجاوز حدود البلاد التونسية الحالية باستثناء المدن الموجودة على السواحل الجزائرية والمغربية. إلا أن عملها لم ينحصر في حدود البلدان التابعة لنفوذها السياسي وحدها. فالليبيون المنخرطون في الجيوش القرطاجية كانوا يحملون معهم عند الرجوع إلى أوطانهم شيئا من المدنية القرطاجية التي عاشوا في ظلها.

ولم يحمل التجار البونيقيون معهم البضاعة التي اشتروها فقط، بل حملوا كذلك جملة من العادات والصناعات والأفكار والمعتقدات استساغها الأهالي شيئا فشيئا وأثروا بها مدنياتهم البدائية.

وقد كان تأثير المدنية البونيقية بطبيعة الحال في بلاد البربر الشرقية. فقد بهرت الأمراء النوميديين الذين أقام العدد الكبير منهم في قرطاج، وتزوجوا بنات طبقتها النبيلة وسموا أبناءهم بأسماء قرطاجية، ومنحوا مدنهم دساتير منسوخة عن دساتير المستعمرات الساحلية، وعبدوا الآلهة السامية وحرضوا رعاياهم على العمل بأساليب ماغون الفلاحية.

واستعان الملوك وكبار القوم بفنيين من قرطاج. وقد شيد أحد هؤلاء حوالي منتصف القرن الثاني قبل المسيح ضريح دقة حيث توجد في نفس الوقت نماذج شرقية وإغريقية عتيقة هي من خصائص الفن البونيقي. ويحتوي هذا الضريح المبنى بالحجارة المنحوتة على ثلاثة طوابق على مدارج وهو جميل الزخرفة . إلا أن تماثلية متوسطة القيمة. وتمكن " ل. بوانسوا" سنة ١٩١٠ من وضع الحجارة المنهارة في مواضعها الأصلية باستثناء حجارتين تحملان نصا واحدا مكتوبا باللغة الليبية والبونيقية أخدهما القنصل "ريد" (Reedمعه إلى انقلترا في سنة ١٨٤٢ ولا يزال موضعهما من الهيكل مجهولا. وفي) هذه الكتابات حجة على أن الارستقراطية البربرية كانت تستعمل اللغة البونيقية في النقوش الحجرية، وأحيانا تنافس بها اللغة الليبية. وتذكر هذه الكتابات أسماء لبناة وعلى رأسهم المسمى "عبريش" الذي كان قرطاجيا من دون شك كما تذكر أسماء أعوانهم)؟(وأسماء النجارين والحدادين.

وبدهي أن تأثير قرطاج لم يزل بزوالها. فالمدينة الرومانية لم تتوطد أركانها من أول وهلة لا في الممتلكات البونيقية القديمة ولا في الممالك البربرية. ولا نعرف من سوء الحظ شيئا يستحق الذكر عن أطوار المنافسات التي تواصلت بين المدنيتين.

والذي لا شك فيه هو أن قرطاج تركت آثارا عميقة في افريقية من حيث الدين.

فالآلهة البونيقية اضطرت إلى ارتداء الحلة الرومانية على غرار عبادها. ولكنها رغم

أسمائها الرومانية وشكل العبادات الروماني استبقت روحها الأصلية. فليس في تضحية "ملكومور" شيء من اللاطين، وبقي بعل الذي سمي "ستورنوس" "متعاليا على البشر علوا كبيرا". وليس من المستبعد كما لاحظ ذلك "س.قزال" أن يكون اعتقاد القوم في علو هذا الإله على بقية الآلهة هيأ العقول إلى التوحيد الذي سيأتي به دين المسيح إلى افريقية.

وبقيت نقود بعض المدن الإفريقية تحمل كتابات بونيقية إلى عهد تيبريوس. وما انفك (زمام الحكم في بعض تلك المدن بيد الشافطين حتى عهد أنطونيوسAntoninsالتقي.)

ولكن يبدو أن اللغة البونيقية لم تبق مستعملة حتى العصر البيزنطي كما يعتقد أكثر الناس اعتمادا على نصوص القديس أغسطينوس و"بروكوب" التي أسيء تأويلها.

ولا سند متينا لرأي أ.رينان الذي تبناه "قزال" القائل بأن بقاء اللغة البونيقية مهد إلى انتشار اللغة العربية – فقد انتهي استعمال اللغة البونيقية في تواريخ اختلفت طبعا باختلاف الجهات، ولكنها لا تتجاوز في أغلب الظن آخر القرن الثاني وأول القرن الثالث بعد المسيح.

إن آثار المدنية البونيقية -وإن هي لم تدم طويلا كما تصوره البعض- فقد بقيت جذورها عميقة. واندمجت بلاد البربر بواسطة قرطاج في عالم البحر المتوسط وتعرفت بفضلها إلى مدنية شرقية سرعان ما راضتها الحضارة اليونانية. وسوف لا تكون هذه المرة الأخيرة التي تصبح فيها أفريقيا الشمالية تابعة للشرق إلا أن انتصار رومة عليها

سوف ينتزعها من نفوذ الشرق طيلة قرون